رجع الصدى

الشرقُ محافظٌ . لماذا ؟

فى مقال الدكتور طه حسين عن « الأدب العربى بين أمسه وغده »[1] إستكشاف كبير . فقد وجد الدكتور أن الأدب العربى يتّسمُ بأنه جديدٌ قديم فى آن واحد ؛ وأنه كلما كان الأدب العربى يجنح نحو التجديد ، لم يكن يبلغ من التجدّد مدى بحيث يتحلّل عنده من كل قيود القديم ، وإنما كان يُبقى على أصول له ضاربةٍ فى القديم وتقاليد موروثة لامعدى له عنها . ولم تكن السمةُ ذاتُ الوجهين ، سمة الجدّة والقدم ، متكافئة الوجهين على الدوام . ففى عصور النهوض كان وجه الجدّة يغلب وجه القدم . وفى عصور الإنحطاط كان وجه القدم يغلب وجه الجدّة . ولكنهما على كل حال ، لم يكن بينهما إنفصال تام . وعدم الانفصال هذا هو الذى ينفى عن الأدب العربى صفة الانقطاع بين قديمه وجديده ، تلك الصفة التى وُجدتْ فى آداب أخرى .

وقد فصل الدكتور القول فى سمة الأدب العربى المذكورة تفصيلاً دقيقاً لاسبيل إلى إعادته الآن . وحسبنا أن نحيل قراء هـذا العدد على العدد الأول ، سواء منهم من قرأ مقال الدكتور مرةً ومن لم يقرأه أو مرّ به مرا .

بيد أن الدكتور لم يُشر إلى السبب الذى يجعل الأدب العربى ، بل النفس العربية ، بل النفس الشرقية ، مستمسكةً بأصولها وتقاليدها إستمساكاً يبدو طوراً قوياً ممقوتاً وطوراً هيناً محتملاً . فهل يتلطف فيبيح لى أن ألفت خاطره الأثير عندنا إلى هذا السبب ؟

***

إن مردّ هذا الاستمساك ، إنما هو إلى عاملين اثنين ينحلّ أحدهما فى الآخر

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١ (أكتوبر ١٩٤٥) .

عند التحقيق الدقيق ويصبحان عاملا واحداً . أولهما ، هو الحياة البدوية التى حييها العربى وما يزال يحياها فى أجزاء كثيرة من آسيا الغربية وشمالىّ أفريقيا . فالذين اختبروا البدو ، يعلمون جيداً أن أليف البادية لا يرغب عنها ولا يجد فى غيرها بديلاً منها . صحيحٌ أنه كثيراً ما يشتاق إلى رؤية المدينة ويُفتَن بمباهجها إمّا صار فيها . ولكن الصحيح أيضاً ، أنه لا يطيل الإقامة بالمدينة ، ويضيق بها على تنوع مباهجها إذا ما أطال المكث ، ويحسّ كأن يداً تخنقه وكأن لا ردّ لرُوحه ورَوْحه إلا البادية . وما فى الباديه بعدُ غير الثبات والاستقرار . ما فى البادية غير الواحة والكلأ والسماء التى لا أول لها ولا آخر ، وغير بحور الرمال التى يكلّ الطرف دون مداها ، وغير السافيات وحمارة الصيف وصبارة الشتاء . ما فى البادية من متحرك إلا كثبان الرمل وإلا مضارب البدو : فقد تُجَنّ الريح — وما أكثر ما تُجنّ ! — فتحمل الكثيب من مكان إلى مكان . وقد تجدب الأرض وتجفّ الواحه ، فيرحل البدو ويتغير المنتجع . ولكن ما قيمة كلّ هذا التغير البسيط ؟ هل هو تغيّرٌ حقاً ؟ هل يُحدث فى نفس البدوى انقلاباً ذا أثر ؟ وهل يُحوّل البدوىّ عما ألفه من رصانة وجفاف ووقار ؟

كلا ، ولا يقدر امرؤٌ على أن يحبب إلى البدوى مظاهر المدنيّة وما يجدّ منها . كلا ولا يقدر على أن يجمّل فى عينيه مرأى حديقة أنف بديع ، كما يَجْمُل فى عينيه وقلبه وكلّ نفسه مرادُ الغزلان والأغنام والهواء الطلقُ والسماء الصافية الأديم . فالبادية وما فيها هى كل الجمال فى عين البدوى . وأصص الزهر التى تملأ دورنا ليست تعدل عنده شبراً من مخضوض الكلأ . والقصور الفخمة فى المدنية ، إن هى إلا سجونٌ بالنسبة إلى الخيام التى ينتقل معها البدو أحراراً . . .

وأخيراً : لعلّ الدكتور لم يكن يريد من وراء مقاله كل الذى أردناه . وإنما أراد أن يقول فقط إن الأدب العربى غير منقطع الصلة بماضيه . ولكنْ أليس الأدب نفسه صدى النفوس ؟ وإذن فالنفوس العربية هى أيضاً شديدة التمسك بقديمها لا تتخلى عنه حتى فى العصور التى يرى العرب أنها عصور تجديد . نقول « النفوس العربية » إطلاقاً ولا نقول « نفوس البادين فقط » . لأن البادية لا تنفرد وحدها بهذه الروح : فأكثر المدن والأرياف فى آسيا الغربية وشمالىّ

أفريقيا تقع على سيف البادية أو فى قلبها ، أو هى وثيقةُ الصلات بالبادية . . . ولنذهب إلى أبعد من هذا . لنقل إن الشرق على العموم ، يتّسم بهذه السمة قليلا أو كثيراً ؛ لأنه يعايش الصحراء قليلا أو كثيراً . وما أكثر الصحارى فى بلاد الشرق وحياة الشرق ! .

***

أما الثانى من العاملين ، فهو التدين . وأُريدُ بالتدين معنىً واسعاً ، سواء أكان تديناً بالإسلام أم بالمسيحية أم باليهودية أم بالبوذية أم بألمانا Mana ، أم بغير هـذا وذاك من معبود . . . فالشرق متدينٌ أمينٌ على الينابيع الروحية دفوع عنها . وقد عصفت به ، أو ببعض أصقاعه ، عواصف جحودٍ وانحلال عديدة فتقاصر ظلّ الدين عن المدن إلى البادية والأماكن المعزولة . ولكنّ الدين مع ذلك كان يظلّ متماسكا عنيداً إلى أن يُقيَّضَ له أن يعود فيبسط سلطانه من جديد نازعاً عن وجهه ، الحقيق أو المزيّف ، حجابَ القطيعة والهجران .

وهذا العامل الثانى نفسُه ، إنما مردّه إلى العامل الأول عامل البداوة . فالبادية هى بيئة التدين العفوية . ولا حاجة إلى أن نشرح هذا القول وقد شرحه الكثيرون من قبل . فالناس لايجهلون كيف يملأ فضاء البادية المترامى نفسَ البدوىّ تهيّباً وجلالاً ، وحيرةً غامضة ، وتساؤلا داخلياً مقلقاً لا يستريح منه إلا أن يؤمن بقوة من القوى السحرية الغامضة المستترة أو بإله أحد سرمدىّ صمد .

***

وهكذا يظهر لنا أن العامل الأول والأخير فى الروح العربية هو البادية . ويظهر لنا أن هـذا العامل هو الذى أوجد ، بين الاتصال العربى القديم بالثقافات الأجنبية القديمة وبين الإتصال العربى الحديث بالثقافات الأجنبية الحديثة ، فرقاً بيّناً أشار إليه الدكتور بتفصيل . وذلك لأن البادين كانوا قديماً أكثر منهم اليوم ؛ فلما قلّ عددهم فى هذا الزمان ، قلّ التحفظ فيما يتعلق العلاقات الشرق والغرب ! . . .

وإذن ، فما لم تزُلِ البادية من عالمنا ، أو مالم تتغير معالمها ، لا تلقى اليد العربية — أو لنقل : الشرقية — العصا التى ورثتها من قديم الأزمان كابراً عن كابر كما يقولون . . . و « صاغراً عن صاغر » . . .

وليس بميسور ، حتى الدرجة الحاضرة التى نحن عليها من تطور علمنا الحديث ، أن نحوّل الصحراء إلى سهل وافر الخيرات والبركات . والممكن الوحيد اليوم فقط ، هو تمدين البادين الذين هم بالابتدائيين أشبه ، وتحضيرهم ليس غير .

نزار سعيد

[حماة]